مجلة الرائد

العدد : ٢٤٥ الموافق في جمادى الآخر ١٤٢٤ هجري ٢٠٠٣/٨ ميلادي

عنوان المقال : هجرة الأطباء والفنيين الصحيين من البلاد العربية والإسلامية	الكاتب : د. مأمون مبيض

طبيعة الظاهرة :

تسبب هجرة العقول والكفاءات العلمية مشكلة حادة على المجتمعات ولحدّ أنها تسمى بـ " نزيف العقول Brain Drain " للإشارة إلى مدى خطورتها على المجتمعات التي تخسر هذه الاختصاصات . ولم تعد هذه المشكلة خاصة بدولة دون أخرى وإنما أصبحت مشكلة دولية تهم كل الأوساط العالمية سواء الدول النامية والتي بشكل عام تخسر الكثير من خلال هذه الظاهرة ، أو البلاد المتقدمة التي بشكل عام المستفيدة من هجرة العقول هذه .

وهناك من يتحدث أيضاً عن ظاهرة " تبديد العقول Brain Waste " عندما لا يستفاد من المتخصص في العمل في مجال تخصصه ، وإنما يوضع للعمل في مجال آخر .

حجم المشكلة :

وخطورة هذه الهجرة أنها تزيد من تفاقم الأزمة الطبية الموجودة أصلاً في معظم البلاد النامية ، وتوسع الفجوة الكبيرة في نوعية الخدمات الطبية بين البلاد النامية والمتقدمة .

وإذا نظرنا إلى أفريقيا مثلاً فإننا نلمس مدى الأزمة التي تعيشها هذه القارة والتي تشكل بعض البلاد العربية جزء منها . فالبلد الذي علم ودرّب طبيباً فإنه يخسر مع كل طبيب مهاجر ما يقدّر بمبلغ 148.000دولاراً للخريج الواحد . وتعظم هذه المشكلة عندما نعلم بأنه يغادر أفريقيا في كل عام 23.000 من الخريجين الأكاديميين ، مما يضاعف المشكلات الصحية التي تعاني منها القارة وخاصة بوجود الأوبئة الكثيرة ومنها " نقص المناعة الذاتية AIDS " وضعف الخدمات الصحية . وتشير بعض الإحصاءات إلى أن ما يتراوح بين ثلث ونصف خريجي كليات الطب الأفريقية يغادرون بلادهم إلى الغرب . ومن المتناقضات أن أفريقيا تنفق ما يزيد عن الأربع بليون من الدولارات سنوياً كرواتب إلى 100.000خبير أجنبي يعمل فيها . وفي كينيا لا نجد من بين 5000 طبيب مسجل فيها أكثر من 600 طبيب يعملون في المشافي الحكومية بينما الباقي يعمل إما في القطاع الخاص أو خارج البلاد .

ولا تقتصر المشكلة على الأطباء فالمشكلة حادة أيضا في نطاق الممرضين حيث نجد في بلد كالفيلبين أن 150.000من الممرضين والممرضات يعملون خارج بلادهم . بينما هناك أكثر من 180.000ممرض من زيمبابوي يعملون في الخارج .

عنوان المقال : هجرة الأطباء والفنيين الصحيين من البلاد العربية والإسلامية	الكاتب : د. مأمون مبيض

إن كل طبيب مهاجر يكسب البلد الغربي المهاجر إليه الكثير من الإمكانات التي خسرتها بلاده . وإذا نظرنا إحصاءات بعض البلاد الغربية كبريطانيا مثلاً أن 31% من الأطباء العاملين فيها هم من خارجها ، بالإضافة إلى 13% من ممرضيها ممن قدم من خارج البلاد ، وتصل هذه النسبة في مدينة لندن إلى 47% ، والحكومة البريطانية بصدد استقدام المزيد لتدارك النقص الشديد في المجالات الصحية وخاصة جهاز التمريض .

وبالرغم من بعض الفوائد التي تجنيها البلاد المغادرة إلى أن الخسارة تبقى تفوق بكثير بعض الفوائد . ومن هذه الفوائد دخل العملة الأجنبية الذي يرسله المهاجرون لأهليهم ، رفع مستوى التخصصات والتدريب الذي يتلقاه الأطباء ، وربما إقامة شبكة علاقات مهنية يمكن أن تفيد على المدى البعيد هذا إن عاد الأطباء لبلادهم .

أسباب هجرة العقول :

لا بد من ضرورة التعرف على أسباب هجرة الأطباء والاختصاصات الأخرى ، وهي أسباب متعددة ومتنوعة بحسب الظروف وطبيعة البلاد . ويمكن أن نعدد من هذه الأسباب :

- الفقر والسعي وراء زيادة الكسب
- البحث عن شروط أفضل للعمل والممارسة الطبية
- محدودية الإمكانات المهنية التي تتيحها البلاد
- عدم الرضا عن الجو العام في البلاد اجتماعياً أو اقتصادياً أو سياسياً
- الاضطهاد الفكري والسياسي
- التمييز ضد بعض الناس لسبب عرقي أو فكري أو ديني
- العامل الأمني والتهديد بالعنف
- ضعف الجو العلمي وقلة إمكانات الأبحاث والدراسات
- عدم إمكانية تسجيل الأبناء في جامعات البلاد والبحث عن تعليم أفضل لهم
- المحسوبيات وتقديم الانتماءات الحزبية السياسية على الإمكانات والقدرات
- صعوبات العودة للبلاد بعد التخصص بسبب جو البلاد

- محدودية الإمكانات التعليمية للأبناء في بلادهم بعد تقدم دراستهم في البلد الغربي
- الابتعاد عن الخدمات العسكرية السيئة الظروف والتي لا تحترم كرامة الإنسان
- أسباب خاصة متنوعة

وهناك من يفرق أحيانا بين الهجرة الاختيارية والهجرة الإجبارية أو القهرية . فمن أسباب الهجرة الاختيارية : البحث عن عمل ، أو للدراسة ، أو للمّ شمل الأسرة . بينما من أسباب الهجرة القهرية : الفرار من الاضطهاد ، أو الكوارث الطبيعية ، أو الحروب والتطهير العرقي . ولا شك أن هناك حالات من الهجرة التي تبدأ اختيارية ثم تصبح إجبارية عندما يصعب على المهاجر العودة لبلاده رغم حرصه بسبب الأسباب الواردة أعلاه .

علاج ظاهرة هجرة العقول :

لا شك أن هناك بلاد استطاعت أن تعالج هذه المشكلة وتحدّ من أثرها ، ومن هذه البلاد نذكر جمهورية أيرلندا الجنوبية وتايلاند . ففي مثال أيرلندا مثلاً استطاعت أن تعكس حركة الهجرة إلى الداخل من أبنائها الذين غادروها لبريطانيا وأمريكا وغيرهما ، عن طريق خطة محكمة مدروسة قدمت فيها أيرلندا الكثير من التشجيع المادي لمن يقرر البقاء والعمل في البلاد ، أو من يقرر العودة والعمل فيها ، ومن ذلك المحفزات المالية ورفع الرواتب . وفي السنوات القليلة الماضية نجد أن وزارة الصحة قدمت لكل طبيب جديد في العمل الطبي جهاز كمبيوتر محمول مجاني تشجيعاً له ، بالإضافة إلى تحسين شروط عقود العمل وتعويضات السكن .

ولا بد للبلد الحريص على عودة أبنائه إليه من النظر الجاد في البحث عن الأسباب الأولية التي دفعت بأبنائه لسلك طريق الهجرة ، وهي الأسباب الذي ذكرناها أعلاه . والعمل الجاد والمخلص لرفع هذه الأسباب مما يشجع الطبيب وأسرته على العودة لبلادهم ، وهو الأمر الذي يتمناه كل إنسان في الحياة . وبالإضافة إلى معالجة الأسباب المؤدية للهجرة يمكن القيام ببعض الخطوات التي يمكن أن تعين في حل أزمة هجرة العقول ومنا :

- تحسين ظروف العمل الطبي الحكومي ، وتحسين شروط العقود ، ورفع الرواتب
- السماح للعاملين في القطاع الحكومي من القيام بالعمل في القطاع الخاص

- تأمين عقود عمل في التخصصات العالية والتي تتناسب مع عمل الطبيب في الغرب
- إيجاد جو مشجع للدراسات والأبحاث الطبية
- تقديم الخدمات التعليمية المناسبة للأبناء العائدين من المدارس الغربية
- تسهيل الأعمال الإدارية والإجراءات القانونية والمالية للعودة
- تحسين الجو العام من سلطة القانون العادل ، وأن الناس سواء أمام قانون واحد
- الابتعاد عن المحسوبيات والولاءات للانتماءات الحزبية ، ومعرفة قيم الناس بما يتقنون
- إنهاء الأحكام العرفية ، وإشعار الإنسان بالأمن مع انعدام إمكانية الاضطهاد السياسي
- إيجاد ظروف مناسبة للتخصص والتدريب والدراسات العليا الدقيقة

ولا بد أن تفكر البلاد النامية التي تخسر كل هذه الكوادر الطبية والتمريضية في كيفية الاستفادة من أبنائها المتخصصين بالرغم من بقائهم في بلاد الغرب عن طرق كثيرة منها :

- تشجيع الأطباء على الزيارات المستمرة لبلادهم وإبقاء الصلة بهم
- فتح مجال العقود القصيرة الأمد ولو لأشهر بسيطة تتيح للطبيب الراغب في تقديم شيء من الخدمة لبلاده ومن ثم العودة لعمله في الغرب ، ومن دون أن نقع في مشكل " كل شيء أو لا شيء "
- استدعاء الأطباء الاختصاصيين لبلادهم من أجل المحاضرة أو التعليم أو التدريب للكوادر الموجودة في البلاد ، وتشجيع عقود المدرسين الجامعيين في جامعات البلاد
- تشجيع الأطباء في الغرب على القيام بالأبحاث الطبية المشتركة مع زملائهم العاملين في بلادهم الأصلية
- عقد مؤتمرات طبية وتخصصية دورية يتم فيها تبادل خبرات المغتربين بالمقيمين
- تشجيع الأطباء المغتربين للنشر في المجلات الطبية المتخصصة في بلدهم الأم

واجب الدول المستقبلة للعقول :

لاشك أن لمشكلة هجرة العقول والاختصاصات الطبية جانب أخلاقي يتعلق بشيء مماثل لحقوق النشر وغيره ، ولكنها هنا حقوق الملكية الفكرية سواء للتخصصات الطبية وغيرها (Intellectual Property). وهذا يفرض التزامات أخلاقية على البلاد المستقبلة للأطباء وهي في الغالب البلاد الغربية

أو البلاد الغنية القادرة على إغراء الأطباء والممرضين بالقدوم إليها .

ويمكن للمؤسسات الدولية أن تعلب دوراً رئيسياً في حلّ هذه الظاهرة أو التخفيف منها عن طريق عقد اتفاقات دولية تلتزم بها البلاد المستفيدة تجاه البلاد الخاسرة . ومن هذه المؤسسات الأمم المتحدة ومنظمة الصحة العالمية والمنظمة الدولية للهجرة وبرنامج التنمية للأمم المتحدة والبنك الدولي واليونسكو . ولا بد للدول النامية من التحالف مع بعضها لمواجهة هذا الخطر الذي يهددها بشكل مباشر ، والسعي للضغط على المؤسسات الدولية للقيام بما يلزم . ومن هذه الأمور :

- أن تنتبه البلاد الغربية لمسؤوليتها الأخلاقية لمدى تأثير استقدامها للأطباء على البلاد النامية
- توفير العمل في التخصصات التي تناسب البلاد المغادرة مما يمكن الطبيب من العودة لبلده والممارسة فيه
- تشجيع المؤسسات الممولة للأبحاث والدراسات الطبية للإنفاق على الأبحاث في البلاد النامية
- تقديم مساعدات المؤسسات الدولية لتحسين ظروف الخدمات الصحية في البلاد النامية
- أن تقدم البلاد المتقدمة تعويضات مناسبة عن كل من تستجلبه من طبيب أو ممرضة
- أن تراعي المؤسسات التي تجلب الاختصاصات الطبية ظروف بعض البلاد النامية ذات الحاجة الشديدة للخدمات الصحية
- التعاون بين الدول النامية للتشجيع على الهجرة الداخلية فيما بينها بدل الهجرة لخارجها
- عقد اتفاقات دولية تلتزم فيها البلاد المتقدمة بتعهدات أخلاقية واقتصادية تجاه البلاد النامية .
- أن تقدم البلاد المتقدمة المساعدات الصحية للبلاد النامية ومنها مثلاً الإعارة المؤقتة للأطباء لبلادهم الأصلية مع إمكانية عودتهم للبلد الغربي عند انتهاء هذه المدة التي يمكن أن تطول أو تقصر بحسب الحاجة والظروف

خاتمة :

لاشك أن الإنسان تربطه ببلاده الكثير من الروابط الوجدانية والاجتماعية والدينية والأخلاقية وغيرها ، وليس من السهل على الطبيب أو الممرض أن يسلك طريق الهجرة بعيداً عن أهله ومحبيه ومعارفه وأزقة وشوارع ومعالم بلاده ، اللهم إلا إذا اضطرته الظروف الاجتماعية والفكرية والاقتصادية

وغيرها للهجرة ، فعندها فإن أرض اللّه واسعة يمشي فيها ويطلب من رزق اللّه ، ولا يفترض في الإنسان أن يعيش في بلد لا يشعر فيه بالاحترام والكرامة والتقدير والأمن . ولا يمكن لطبيب مهنته رعاية الآخرين والتخفيف من معاناتهم أن لا يشعر بحاجات بلاده ومعاناتها الصحية والطبية . والمطلوب في الأمر أن تتوافق رغبة الطبيب في تقديم الرعاية مع رغبة الحكومات والمؤسسات الطبية في بلاده في توفير مثل هذه الرعاية .

ولا بد لحكومات البلاد النامية من التفكير الجاد والبصيرة الحكيمة في التعامل مع ظاهرة العقول المهاجرة ، ووضع الخطط والدراسات التي تسهل عودة المهاجرين لبلادهم ليأخذوا بدورهم في نمو البلاد وتقدمها ، أو على الأقل للاستفادة منهم ومن الخبرات الكثيرة والتي منها على مستوى عال من التخصص والإبداع ، والتي تحسن البلاد الغربية الاستفادة منها . ولا بد أن نذكي هنا بالمشروع الذي تقوم عليه المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة التابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي والذي يهدف للاستفادة من العقول المسلمة المهاجرة ، وإن كان هذا المشروع يحتاج للكثير من الجهد والعمل والمثابرة .

مراجع هذا البحث متوفرة لمن يريدها عن طريق الاتصال بالمؤلف مباشرة على عنوانه الالكتروني : (mobayed@hotmail.com) .